تفسير
سورة الأحزاب

إِعْدَادُ الْفَقِيرِ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ:

هَيْثَم بْنِ مُحَمَّدٍ سَرْحَان

المُدَرِّسُ بِمَعْهَدِ الْحَرَمِ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ -سَابِقًا- وَالمُشْرِفُ عَلَى مَعْهَدِ السُّنَّةِ

mahadsunnah.com

غفرالله له ولوالديه ولمن أعانه على إخراج هذا الكتاب

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

[طبعةٌ إلكترونيَّةٌ - غير مُعدَّةٍ للطِّباعة بعدُ]

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥م

سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى
تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ
أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ
وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا
شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا
﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ
سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا

يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ
ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ
أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا
﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ
يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ
ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا
﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ
وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى
ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ
مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا
نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ
إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى
بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ
وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ۞
كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ
أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا
فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ
أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ
وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ
يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا
﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ
أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ
عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا
لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ
نَٰظِرِينَ إِنىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا
فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟
رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ
يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾
مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ
لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا
ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ
مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ

ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قالَ العلَّامةُ السِّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ:

[١-٣] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ .

أي: يا أيُّها الَّذي منَّ الله عليه بالنُّبوَّة، واختصَّه بوحيه، وفضَّله علىٰ سائر الخلق، اشكُرْ نعمة ربِّك عليك باستعمال تقواه الَّتي أنت أولىٰ بها من غيرك، والَّتي يجب عليك منها أعظمُ من سواك، فامتثِلْ أوامِرَه ونواهِيَه، وبلِّغ رسالاتِه، وأدِّ إلىٰ عباده وحيه، وابذل النَّصيحة للخلق.

ولا يصُدَّنَّك عن هذا المقصود صادٌّ، ولا يرُدَّك عنه رادٌّ، فلا تُطِع كلَّ كافرٍ قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا مُنافقٍ قد استبطن التَّكذيب والكفر وأظهر ضدَّه، فهؤلاء هم الأعداء علىٰ الحقيقة، فلا تطعهم في بعض الأمور الَّتي تنقض التَّقوىٰ وتناقضها، ولا تتَّبع أهواءهم فيضلُّوك عن الصَّواب.

﴿وَ﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾ فإنَّه هو الهدىٰ والرَّحمة، وَارْجُ بذلك ثواب ربِّك، فإنَّه بما تعملون خبيرٌ، يُجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشَّرِّ، فإن وقع في قلبك أنَّك إن لم تطعهم في أهوائهم المُضلَّة حصل عليك منهم ضررٌ، أو حصل نقصٌ في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل

مـا يقاومـه ويقـاوم غيـره، وهـو التَّوكُّل علـىٰ الله، بـأن تعتمد علـىٰ ربِّـك اعتماد من لا يملـك لنفسـه ضـرًّا ولا نفعًـا، ولا موتًـا ولا حيـاةً ولا نشـورًا، في سـلامتك مـن شـرِّهم، وفي إقامـة الدِّيـن الَّـذي أُمـرت بـه، وثِـقْ بـالله في حصـول ذلك الأمـر علىٰ أيِّ حـالٍ كان.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ تُـوكِّل إليـه الأمـور فيقـوم بهـا، وبمـا هو أصلـح للعبد، وذلـك لعلمـه بمصالـح عبده مـن حيـث لا يعلم العبـد، وقدرتـه علىٰ إيصالهـا إليه مـن حيـث لا يقـدر عليهـا العبد، وأنَّـه أرحم بعبـده من نفسـه، ومن والديـه، وأرأف بـه مـن كلِّ أحـدٍ، خصوصًـا خـواصُّ عبيـده، الَّذيـن لـم يـزل يُربِّيهـم بـبرِّه، ويُـدِرُّ عليهـم بركاتـه الظَّاهـرة والباطنـة، خصوصًـا وقد أمـره بإلقاء أمـوره إليـه، ووعده، فهنـاك لا تسـأل عـن كلِّ أمـرٍ يتيسَّـر، وصعـبٍ يسـهُل، وخُطـوبٍ تهـون، وكُـروبٍ تـزول، وأحـوالٍ وحوائِـجَ تُقضـىٰ، وبـركاتٍ تنزل، ونِقَـمٍ تُدفَـع، وشـرورٍ تُرفَع.

وهنـاك تـرىٰ العبـد الضَّعيـف الَّـذي فـوَّض أمره لسـيِّده، قـد قـام بأمـورٍ لا تقوم بها أمَّـةٌ مـن النَّـاس، وقـد سـهَّل الله عليـه مـا كان يصعب علـىٰ فحـول الرِّجـال، وبالله المستعان.

[٤-٥] ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

يعاتـب تعالـىٰ عباده عن التَّكلُّـم بما لا حقيقة له مـن الأقوال، ولـم يجعلـه الله تعالىٰ كمـا قالـوا، فإنَّ ذلـك القول منكـم كـذبٌ وزورٌ، يترتَّب عليـه مُنكَراتٌ من الشَّـرع، وهـذه قاعـدةٌ عامَّـةٌ في التَّكلُّـم في كلِّ شـيءٍ، والإخبـار بوقـوعِ ووجودِ ما لـم يجعله الله تعالىٰ.

ولكـن خصَّ هـذه الأشـياء المذكـورة، لوقوعها، وشـدَّة الحاجـة إلىٰ بيانهـا، فقال:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ هذا لا يوجد، فإيَّاكم أن تقولوا عن أحدٍ: إنَّ له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين علىٰ الخلقة الإلهيَّة، ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، أَوْ كَأُمِّي»، فما جعلهنَّ الله ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أمُّك من ولدتك، وصارت أعظم النِّساء عليك حُرمةً وتحريمًا، وزوجتك أحلُّ النِّساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟ هذا أمر لا يجوز؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾، والأدعياء: الولد الَّذي كان الرَّجل يدَّعيه وهو ليس له، أو يُدْعَىٰ إليه، بسبب تبنِّيه إيَّاه، كما كان الأمر بالجاهليَّة وأوَّل الإسلام، فأراد الله تعالىٰ أن يبطله ويزيله، فقدَّم بين يدي ذلك بيانَ قُبحِه، وأنَّه باطلٌ وكذبٌ، وكلُّ باطلٍ وكذبٍ لا يوجد في شرع الله، ولا يتَّصف به عباد الله.

يقول تعالىٰ: فالله لم يجعل الأدعياء الَّذين تدَّعونهم أو يُدَّعون إليكم أبناءَكم، فإنَّ أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم، وكانوا منكم، وأمَّا هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القول الَّذي تقولون في الدَّعِيِّ: إنَّه ابن فلانٍ الَّذي ادعاه، أو والده فلانٌ، ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾ أي: قولٌ لا حقيقة له ولا معنىٰ له، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: اليقين والصِّدق، فلذلك أمركم باتِّباعه علىٰ قوله وشرعه، فقوله حقٌّ، وشرعه حقٌّ، والأقوال والأفعال الباطلة لا تُنسَب إليه بوجهٍ من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنَّه لا يهدي إلَّا إلىٰ السَّبيل المستقيمة، والطُّرق الصَّادقة، وإن كان ذلك واقعًا بمشيئته، فمشيئته عامَّةٌ لكلِّ ما وُجِدَ من خيرٍ وشرٍّ.

ثمَّ صرَّح لهم بترك الحالة الأولىٰ المُتضمِّنة للقول الباطل، فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾ أي: الأدعياء ﴿لِـَٔابَآئِهِمْ﴾ الَّذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: أعدَلُ، وأقوَمُ، وأهدىٰ.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ الحقيقيِّين ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ أي: إخوَتُكم

في ديـن الله، ومواليكـم في ذلـك، فادعوهـم بالأُخُـوَّة الإيمانيَّـة الصَّادقـة، والمُوالاة علـىٰ ذلـك، فـترك الدَّعـوة إلـىٰ مـن تبنَّاهـم حتـمٌ، لا يجـوز فعلهـا، وأمَّـا دُعاؤهم لآبائهـم، فـإن عُلِمـوا دُعـوا إليهـم، وإن لم يُعلَمـوا اقتُصِر علـىٰ ما يُعلَـم منهم، وهو أُخُـوَّة الدِّيـن والمـوالاة، فـلا تظنُّـوا أنَّ حالة عـدم علمكـم بآبائهم عـذرٌ في دعوتهم إلـىٰ مـن تبنَّاهـم؛ لأنَّ المحذور لا يـزول بذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ بـأن سبق علىٰ لسـان أحدكـم دعوته إلىٰ مـن تبنَّـاه، فهـذا غير مُؤاخَـذٍ به، أو عُلِم أبـوه ظاهـرًا فدعوتموه إليه، وهـو في الباطن غيـر أبيـه، فليس عليكم في ذلـك حـرجٌ إذا كان خطـأً، ﴿وَلَٰكِن﴾ يؤاخذكـم بـ ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ مـن الكلام بمـا لا يجوز.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ غفـر لكـم ورحمكم حيث لم يعاقبكم بما سـلف، وسـمح لكـم بما أخطأتـم به، ورحمكـم حيث بيَّن لكـم أحكامه الَّتـي تُصلِح دينكم ودنياكم، فلـه الحمد تعالىٰ.

[٦] ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالـىٰ المؤمنيـن خـبرًا يعرفـون بـه حالـة الرَّسـول ﷺ ومرتبتـه، فيعاملونـه بمقتضـىٰ تلـك الحالـة، فقـال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾، أقـرب مـا للإنسـان وأولـىٰ مـا لـه نفسـه، فالرَّسـول أولـىٰ به مـن نفسـه؛ لأنَّـه -عليـه الصَّلاة والسَّـلام- بـذل لهم مـن النُّصح والشَّـفقة والرَّأفة مـا كان به أرحم الخلـق وأرأفهم، فرسـول الله أعظـم الخلـق مِنَّـةً عليهم مـن كلِّ أحـدٍ، فإنَّه لم يصـل إليهم مثقـال ذرَّةٍ مـن الخيـر، ولا اندفـع عنهـم مثقـال ذرَّةٍ مـن الشَّـرِّ إلَّا علـىٰ يديه وبسـببه.

فلذلـك وجـب عليهـم إذا تعـارض مُـراد النَّفـس أو مُـراد أحـدٍ مـن النَّاس مـع مُراد الرَّسـول أن يُقـدَّم مُـرادُ الرَّسـول، وأن لا يُعـارَض قـولُ الرَّسـول بقـول أحـدٍ كائنًـا مـن كان، وأن يفـدوه بأنفسـهم وأموالهـم وأولادهـم، ويُقدِّمـوا محبَّته علـىٰ الخلق

كلِّهم، وألَّا يقولوا حتَّىٰ يقول، ولا يتقدَّموا بين يديه.

وهو ﷺ أبٌ للمؤمنين كما في قراءة بعض الصَّحابة، يُربِّيهم كما يُربِّي الوالد أولاده، فترتَّب علىٰ هذه الأبُوَّة أن كان نساؤه أمَّهاتِهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمَحرميَّة، وكأنَّ هذا مُقدِّمةٌ لما سيأتي في قصَّة زيد بن حارثةَ، الَّذي كان قبلُ يُدْعَىٰ: «زيدَ بنَ مُحمَّدٍ» حتَّىٰ أنزل الله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فقطع نسبه،وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية أنَّ المؤمنين كلَّهم أولادٌ للرَّسول، فلا مزيَّة لأحدٍ عن أحدٍ، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدَّعوة فإنَّ النَّسب الإيمانيَّ لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا يأسف.

وترتَّب علىٰ أنَّ زوجات الرَّسول أمَّهات المؤمنين أنَّهن لا يحلُلْن لأحدٍ من بعده؛ كما الله صرَّح بذلك: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ أي: الأقارب، قرُبوا أو بعُدوا ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضًا، ويبَرُّ بعضهم بعضًا، فهم أولىٰ من الحلف والنُّصرة.

والأدعياء الَّذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالىٰ التَّوارث بذلك، وجعله للأقارب، لطفًا منه وحكمةً، فإنَّ الأمر لو استمرَّ علىٰ العادة السَّابقة لحصل من الفساد والشَّرِّ والتَّحيُّل لحرمان الأقارب من الميراث شيءٌ كثيرٌ.

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: سواءٌ كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين، فإنَّ ذوي الأرحام مُقدَّمون في ذلك، وهذه الآية حجَّةٌ علىٰ ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النِّكاح، والمال، وغير ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي: ليس لهم حقٌّ مَفروضٌ، وإنَّما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تتبرَّعوا لهم تبرُّعًا، وتعطوهم معروفًا منكم، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ أي: قد سُطِّر، وكُتِب، وقدَّره الله، فلابدَّ من نُفوذِه.

[٧-٨] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

يُخبِر تعالىٰ أنَّه أخذ من النَّبيِّين عمومًا ومن أولي العزم -وهم هؤلاء الخمسة المذكورون- خصوصًا ميثاقَهم الغليظ، وعهدهم الثَّقيل المُؤكَّد، علىٰ القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأنَّ هذا سبيلٌ قد مشىٰ الأنبياء المُتقدِّمون حتَّىٰ خُتِموا بسيِّدهم وأفضلهم محمَّدٍ ﷺ، وأمر النَّاس بالاقتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ هل وَفَوا فيه وصدقوا فيثيبُهم جنَّات النَّعيم؟ أم كفروا فيُعذِّبهم العذاب الأليم؟ قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾.

[٩-١١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾.

يُذكِّر تعالىٰ عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويَحثُّهم علىٰ شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكَّة والحجاز من فوقهم، وأهل نجدٍ من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا علىٰ استئصال الرَّسول والصَّحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالأتهم طوائف اليهود الَّذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنودٍ عظيمةٍ وأممٍ كثيرةٍ.

وخندق رسول الله ﷺ علىٰ المدينة، فحصروا المدينة، واشتدَّ الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتَّىٰ بلغ الظَّنُّ من كثيرٍ من النَّاس كلَّ مبلغٍ لمَّا رأوا من الأسباب المُستحكمة، والشَّدائد الشَّديدة، فلم يزل الحصار علىٰ المدينة مدَّةً طويلةً، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ أي: الظُّنون السَّيِّئة، أنَّ الله لا ينصر دينه، ولا يُتِمُّ كلمته. ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ بالخوف،

والقلق، والجوع، ليتبيَّن إيمانهم، ويزيد إيقانهم، فظهر -ولله الحمد- من إيمانهم وشدَّة يقينهم ما فاقوا فيه الأوَّلين والآخرين.

وعندما اشتدَّ الكرب، وتفاقمت الشَّدائد، صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، وهنالك تبيَّن نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يُضمرون قال تعالىٰ:

[١٢-١٥] ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشِّدَّة والمِحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلىٰ الحالة القاصرة، ويُصدِّق ظنَّه.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ من المنافقين، بعد ما جزعوا وقلَّ صبرهم، وصاروا أيضًا من المخذولين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا النَّاس من شرِّهم، فقالت هذه الطَّائفة: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون: (يا أهل المدينة)، فنادوهم باسم الوطن المُنبئ عن التَّسمية، فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدِّين والأُخوَّة الإيمانيَّة ليس له في قلوبهم قدرٌ، وأنَّ الَّذي حملهم علىٰ ذلك مُجرَّد الخور الطَّبيعيِّ.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: في موضعكم الَّذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق، وخارج المدينة، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلىٰ المدينة، فهذه الطَّائفة تُخذِّل عن الجهاد، وتُبيِّن أنَّهم لا قوَّة لهم بقتال عدوِّهم، ويأمرونهم بترك القتال، فهذه الطَّائفة شرُّ الطَّوائف وأضرُّها، وطائفةٌ أخرىٰ دونهم أصابهم الجبن والجزع، وأحبُّوا أن ينخذلوا عن الصُّفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي:

عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غُيَّبٌ عنها، فَأْذَنْ لنا نرجعْ إليها فنحرسها، وهم كذَبَةٌ في ذلك، ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ﴾ أي: ما قَصدُهم ﴿إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾، ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلةً وعُذرًا لهم، فهؤلاء قلَّ إيمانُهم، وليس له ثبوتٌ عند اشتداد المِحَن.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: لو دخل الكفَّار إليها من نواحيها، واستولوا عليها -لا كان ذلك-، ﴿ثُمَّ﴾ سئل هؤلاء ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرُّجوع إلىٰ دين المُستولين المُتغلِّبين ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي: لأعطوها مُبادرين، ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي: ليس لهم منعةٌ ولا تَصلُّبٌ علىٰ الدِّين، بل بمُجرَّد ما تكون الدُّولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم علىٰ كفرهم، هذه حالهم، والحال أنَّهم قد ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾، سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنُّهم إذن بربِّهم؟

[١٦-١٧] ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُل﴾ لهم لائمًا علىٰ فرارهم، ومُخبرًا أنَّهم لا يفيدهم ذلك شيئًا ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، فلو كنتم في بيوتكم لبرز الَّذين كُتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعكم، والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر تلاشىٰ كلُّ سببٍ، وبطلت كلُّ وسيلةٍ ظنَّها الإنسان تُنجيه.

﴿وَإِذًا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدُّنيا فإنَّكم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ متاعًا، لا يسوىٰ فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم علىٰ أنفسكم التَّمتُّع الأبديَّ في النَّعيم السَّرمديِّ.

ثمَّ بيَّن أنَّ الأسباب كلَّها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أراده الله بسوءٍ، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ أي: يمنعكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أي: شرًّا، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

رَحْمَةً﴾ فإنَّه هو المعطي المانع، الضَّارُّ النَّافع، الَّذي لا يأتي بالخير إلَّا هو، ولا يدفع السُّوء إلَّا هو، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولَّاهم فيجلب لهم النَّفع، ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ أي ينصرهم فيدفع عنهم المَضارَّ.

فَلْيَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلِّها، الَّذي نفذت مشيئته، ومضىٰ قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته وَلِيٌّ ولا ناصرٌ.

[١٨-٢٠] ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ثمَّ توَّعد تعالىٰ المُخذِّلين المُعوِّقين وتهدَّدهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الَّذين خرجوا: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ﴾ أي: ارجعوا، كما تقدَّم من قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ﴾، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾، فهم أشدُّ النَّاس حرصًا علىٰ التَّخلُّف؛ لعدم الدَّاعي لذلك من الإيمان والصَّبر، ووجود المُقتضي للجبن من النِّفاق وعدم الإيمان.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النَّفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ نظر المَغشِيِّ عليه ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ من شدَّة الجُبن الَّذي خلع قلوبهم، والقلق الَّذي أذهلهم، وخوفًا من إجبارهم علىٰ ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطُّمأنينة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: خاطبوكم، وتكلَّموا معكم بكلام حديدٍ، ودعاوىٰ غير صحيحةٍ، وحين تسمعهم، تظنُّهم أهل الشَّجاعة والإقدام، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾ الَّذي يُراد منهم،

وهـذا شـرٌّ مـا في الإنسـان، أن يكـون شـحيحًا بمـا أُمِـر بـه، شـحيحًا بمالِـه أن ينفقه في وجهـه، شـحيحًا في بدنـه أن يجاهـد أعـداء الله، أو يدعو إلىٰ سـبيل الله، شـحيحًا بجاهـه، شـحيحًا بعلمـه ونصيحتـه ورأيه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الَّذيـن بتلـك الحالـة ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾، بسـبب عـدم إيمانهـم أحبـط الله أعمالهـم، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾، وأمَّـا المؤمنـون فقـد وقاهـم الله شـحَّ أنفسـهم، ووفَّقهـم لبـذل ما أُمروا بـه من بـذلٍ لأبدانهـم في القتال في سـبيله، وإعلاء كلمتـه، وأموالهـم، للنَّفقـة في طـرق الخيـر، وجاههـم وعلمهـم.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: يظنُّـون أنَّ هـؤلاء الأحـزاب الَّذيـن تحزَّبـوا علىٰ حـرب رسـول الله ﷺ وأصحابـه لـم يذهبـوا حتَّـىٰ يسـتأصلوهم، فخـاب ظنُّهـم، وبطـل حسـبانهم، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مـرَّةً أخـرىٰ ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: لـو أتـىٰ الأحزاب مرَّةً ثانيةً مثـل هذه المرَّة ودَّ هـؤلاء المنافقـون أنَّهـم ليسـوا في المدينـة، ولا في القـرب منها، وأنَّهم مـع الأعراب في الباديـة يسـتخبرون عـن أخباركم، ويسـألون عـن أنبائكـم، ماذا حصـل عليكم؟ فتبًّـا لهـم وبُعـدًا، فليسـوا ممَّـن يبالـىٰ بحضورهـم ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠﴾، فـلا تبالوهـم، ولا تأسـوا عليهـم.

[٢١-٢٤] ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ٢١ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ٢٢ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ٢٣ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٤﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيـث حضـر الهيجـاء بنفسـه الكريمـة، وباشـر موقـف الحرب، وهـو الشَّـريف الكامـل، والبطل الباسـل، فكيف تشـحُّون بأنفسـكم عـن أمـرٍ جاد رسـول الله ﷺ بنفسـه فيه؟ فَتأَسَّـوْا بـه في هذا الأمـر وغيره. واسـتدلَّ الأصوليُّون في هـذه الآية علىٰ الاحتجاج بأفعال الرَّسـول ﷺ، وأنَّ الأصل

أنَّ أمَّته أُسوته في الأحكام، إلَّا ما دلَّ الدَّليل الشَّرعيُّ علىٰ الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوةٌ حسنةٌ، وأسوةٌ سيِّئةٌ، فالأسوة الحسنة في الرَّسول ﷺ، فإنَّ المُتأسِّي به سالكٌ الطَّريق الموصل إلىٰ كرامة الله، وهو الصِّراط المستقيم، وأمَّا الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السَّيِّئة؛ كقول الكفَّار حين دعتهم الرُّسل للتَّأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الزُّخرف]، وهذه الأسوة الحسنة إنَّما يسلكها ويُوفَّق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإنَّ ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه يحثُّه علىٰ التَّأسِّي بالرَّسول ﷺ.

لمَّا ذكر حالة المنافقين عند الخوف ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ الَّذين تحزَّبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهىٰ الخوف، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ فإنَّا رأينا ما أخبرنا به، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ في جوارحهم، وانقيادًا لأمر الله.

ولمَّا ذكر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يُوَلُّون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ أي: وفَّوا به، وأتمُّوه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبَّلوا أنفسهم في طاعته، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: إرادته ومطلوبه، وما عليه من الحقِّ، فقُتِل في سبيل الله، أو مات مُؤدِّيًا لحقِّه، لم ينقصه شيئًا، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارعٌ في قضاء ما عليه ووفاء نَحبِه ولمَّا يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساعٍ في ذلك، مُجِدٌّ، ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ كما بدَّل غيرهم، بل لم يزالوا علىٰ العهد، لا يُلوون، ولا يتغيَّرون، فهؤلاء الرِّجال علىٰ الحقيقة، ومن عداهم فصُوَرُهم صُوَرُ رجالٍ، وأمَّا الصِّفات فقد قصرت عن صفات الرِّجال.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم، وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ الآية، أي: قدَّرنا ما قدَّرنا من هذه الفتن والمحن والزَّلازل؛ ليتبيَّن الصَّادق من الكاذب، فيجزي الصَّادقين بصدقهم، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ الَّذين تغيَّرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم؛ بل علم أنَّهم لا خير فيهم، فلم يُوفِّقهم، ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بأن يُوفِّقهم للتَّوبة والإنابة، وهذا هو الغالب، علىٰ كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالَّين علىٰ المغفرة، والفضل، والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾، ﴿غَفُورٗا﴾ لذنوب المُسرفين علىٰ أنفسهم ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب، ﴿رَّحِيمٗا﴾ بهم حيث وفَّقهم للتَّوبة، ثمَّ قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

[٢٥-٢٧] ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ أي: ردَّهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الَّذي كانوا حَنِقين عليه، مغتاظين قادرين عليه، جازمين بأنَّ لهم الدَّائرة، قد غرَّتهم جموعهم، وأُعجبوا بتحزُّبهم، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمةً، وهي ريحُ الصَّبا، فزعزعت مراكزهم، وقوَّضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرُّعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العاديَّة والقدريَّة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ لا يغالبه أحدٌ إلَّا غُلِبَ، ولا يستنصره أحدٌ إلَّا غَلَبَ، ولا

يُعجزه أمرٌ أراده، ولا ينفع أهل القوَّة والعزَّة قوَّتُهم وعزَّتُهم إن لم يُعنهم بقوَّته وعزَّته.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولًا مظفورًا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ فلم يَقْوَوا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلُّوا، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرِّجال المقاتلون، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ مَنْ عداهم من النِّساء والصِّبيان.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أي: غنَّمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي: أرضًا كانت من قبل من شرفها وعزَّتها عند أهلها لا تتمكَّنون من وطئها، فمكَّنكم الله وخذلهم، وغنِمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يعجزه شيءٌ، ومن قدرته قدَّر لكم ما قدَّر.

وكانت هذه الطَّائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود، في قريةٍ خارج المدينة، غير بعيدةٍ، وكان النَّبيُّ ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعهم، وهادنهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يُغيِّر عليهم شيئًا.

فلمَّا رأوا يوم الخندق الأحزاب الَّذين تحزَّبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلَّة المسلمين، وظنُّوا أنَّهم سيستأصلون الرَّسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الَّذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ومالؤوا المشركين على قتاله.

فلمَّا خذَّل الله المشركين تفرَّغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذٍ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تُقتَل مُقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتُغنَم أموالُهم.

فأتمَّ الله لرسوله والمؤمنين المنَّة، وأسبغ عليهم النِّعمة، وأقرَّ أعينهم بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قُتِلوا، وأسر من أُسِروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مُستمرًّا.

[٢٨-٢٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾.

لمَّا اجتمع نساء رسول الله ﷺ في الغيرة، وطلبن منه النَّفقة والكسوة، طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كلِّ وقتٍ، ولم يزلن في طلبهنَّ مُتَّفقاتٍ، في مُرادِهنَّ مُتعنِّتاتٍ، شَقَّ ذلك علىٰ الرَّسول، حتَّىٰ وصلت به الحال إلىٰ أنَّه آلىٰ منهنَّ شهرًا.

فأراد الله أن يسهِّل الأمر علىٰ رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويُذْهِبَ عنهنَّ كلَّ أمرٍ ينقص أجرهنَّ، فأمر رسوله أن يخيِّرهنَّ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ليس لكنَّ في غيرها مَطلبٌ، وصِرتنَّ ترضينَ لوجودِها، وتغضبنَ لفقدها، فليس لي فيكنَّ أرَبٌ وحاجةٌ، وأنتنَّ بهذه الحال، ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ شيئًا ممَّا عندي من الدُّنيا، ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ أي: أفارقكنَّ ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ من دون مُغاضَبةٍ ولا مُشاتَمةٍ؛ بل بسعة صدرٍ، وانشراح بالٍ، قبل أن تبلغ الحال إلىٰ ما لا ينبغي.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: هذه الأشياء مُرادكنَّ، وغاية مقصودكنَّ، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنَّة، لم تبالين بسعة الدُّنيا وضيقها، ويُسرها وعُسرها، وقنعتنَ من رسول الله بما تيسَّر، ولم تطلبنَ منه ما يشُقُّ عليه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ رتَّب الأجر علىٰ وصفهنَّ بالإحسان؛ لأنَّه السَّبب الموجب لذلك، لا لكونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول، فإنَّ مُجرَّد ذلك لا يكفي؛ بل لا يُفيد شيئًا، مع عدم الإحسان، فخيَّرهنَّ رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدَّار الآخرة، كلُّهنَّ، ولم يتخلَّف منهنَّ واحدةٌ، رضي الله عنهنَّ.

وفي هذا التَّخيير فوائد عديدةٌ:

○ منها: الاعتناء برسوله، وغيرته عليه، أن يكون بحالةٍ يشقُّ عليه كثرة مطالب زوجاته الدُّنيويَّة.

- ومنها: سلامته ﷺ بهذا التَّخيير من تبعة حقوق الزَّوجات، وأنَّه يبقىٰ في حرِّيَّة نفسه، إن شاء أعطىٰ، وإن شاء منع، ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.
- ومنها: تنزيهه عمَّا لو كان فيهنَّ من تؤثُّر الدُّنيا علىٰ الله ورسوله، والدَّار الآخرة، وعن مقارنتها.
- ومنها: سلامة زوجاته -رضي الله عنهنَّ- عن الإثم، والتَّعرُّض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التَّخيير عنهنَّ التَّسخُّط علىٰ الرَّسول المُوجب لسخطه، المُسخط لربِّه، المُوجب لعقابه.
- ومنها: إظهار رفعتهنَّ، وعلُوِّ درجتهنَّ، وبيان علُوِّ هِمَمِهن، أن كان الله ورسوله والدَّار الآخرة مُرادهنَّ ومَقصودهنَّ، دون الدُّنيا وحطامها.
- ومنها: استعدادُهنَّ بهذا الاختيار للأمر الخيار؛ للوصول إلىٰ خيار درجات الجنَّة، وأن يَكُنَّ زوجاته في الدُّنيا والآخرة.
- ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهنَّ، فإنَّه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملاتٍ مُكمَّلاتٍ، طيِّباتٍ مُطيَّباتٍ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.
- ومنها: أنَّ هذا التَّخيير داعٍ وموجبٌ للقناعة، الَّتي يطمئنُّ لها القلب، وينشرح لها الصَّدر، ويزول عنهنَّ جشع الحرص، وعدم الرِّضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمِّه وغمِّه.
- ومنها: أن يكون اختيارهنَّ هذا سببًا لزيادة أجرهنَّ ومضاعفته، وأن يَكُنَّ بمرتبةٍ ليس فيها أحدٌ من النِّساء، ولهذا قال:

[٣٠] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

لمَّا اخترن الله ورسوله والدَّار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهنَّ، ومضاعفة وزرهنَّ وإثمهنَّ لو جرىٰ منهنَّ؛ ليزداد حذرُهنَّ، وشكرهنَّ الله تعالىٰ، فجعل من أتىٰ منهنَّ بفاحشةٍ ظاهرةٍ لها العذاب ضعفين.

[٣١] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا

كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ أي: تطيع ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قليلًا أو كثيرًا، ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها مرَّتين، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ وهي الجنَّة، فقنتنَ لله ورسوله، وعملنَ صالحًا، فعُلِم بذلك أجرهُنَّ.

[٣٢-٣٤] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ خطابٌ لهنَّ كلِّهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنَّكنَّ بذلك تفُقنَ النِّساء، ولا يلحقكنَّ أحدٌ من النِّساء، فكمَّلن التَّقوىٰ بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدهنَّ إلىٰ قطع وسائل المُحرَّم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرِّجال، أو بحيث يسمعون فتَلِنَّ في ذلك، وتتكلَّمنَ بكلامٍ رقيقٍ يدعو ويُطمع ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزِّنا، فإنَّه مُستعدٌّ، ينظر أدنىٰ مُحرِّكٍ يُحرِّكه؛ لأنَّ قلبه غير صحيح، فإنَّ القلب الصَّحيح ليس فيه شهوةٌ لما حرَّم الله، فإنَّ ذلك لا تكاد تُميلُه ولا تحرِّكه الأسباب؛ لصحَّة قلبه، وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب الَّذي لا يتحمَّل ما يتحمَّل الصَّحيح، ولا يصبر علىٰ ما يصبر عليه، فأدنىٰ سببٍ يوجد يدعوه إلىٰ الحرام يجيب دعوته، ولا يتعاصىٰ عليه، فهذا دليلٌ علىٰ أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فإنَّ الخضوع بالقول واللِّين فيه في الأصل مُباحٌ، ولكن لمَّا كان وسيلةً إلىٰ المُحرَّم مُنِع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرِّجال أن لا تلِينَ لهم القول.

ولمَّا نهاهُنَّ عن الخضوع في القول، فربَّما توهَّم أنَّهنَّ مَأموراتٌ بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: غير غليظٍ ولا جافٍ؛ كما أنَّه ليس

بِلَيِّنٍ خاضعٍ.

وتأمَّل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ولم يقل: (فلا تَلِنَّ بالقول)، وذلك لأنَّ المنهيَّ عنه القول اللَّيِّن، الَّذي فيه خضوع المرأة للرَّجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الَّذي يُطمَع فيه، بخلاف من تكلَّم كلامًا ليِّنًا ليس فيه خضوعٌ، بل ربَّما صار فيه ترفُّعٌ وقهرٌ للخصم، فإنَّ هذا لا يَطمَع فيه خصمُه، ولهذا مدح الله رسوله باللِّين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال لموسىٰ وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

ودلَّ قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه علىٰ الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزِّنا أنَّه ينبغي للعبد إذا رأىٰ من نفسه هذه الحالة، وأنَّه يهشُّ لفعل المُحرَّم عندما يرىٰ أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلىٰ الحرام، فَلْيَعْرِفْ أنَّ ذلك مرضٌ، فَلْيَجْتَهِدْ في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرَّدِيَّة، ومجاهدة نفسه علىٰ سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتَّوفيق، وأنَّ ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها؛ لأنَّه أسلم وأحفظ لَكُنَّ، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا تُكثِرن الخروج متجمِّلاتٍ أو مُتطيِّباتٍ كعادة أهل الجاهليَّة الأولىٰ، الَّذين لا علم عندهم ولا دين، فكلُّ هذا دفعٌ للشَّرِّ وأسبابه.

ولمَّا أمرهنَّ بالتَّقوىٰ عمومًا، وبجزئيَّاتٍ من التَّقوىٰ، نصَّ عليها لحاجة النِّساء إليها، كذلك أمرهنَّ بالطَّاعة، خصوصًا الصَّلاة والزَّكاة اللَّتان يحتاجهما ويضطرُّ إليهما كلُّ أحدٍ، وهما أكبر العبادات، وأجلُّ الطَّاعات، وفي الصَّلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزَّكاة الإحسان إلىٰ العبيد.

ثمَّ أمرهنَّ بالطَّاعة عمومًا، فقال: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، يدخل في طاعة الله ورسوله كلُّ أمرٍ أمرَا به أمر إيجابٍ أو استحبابٍ.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بأمركنَّ بما أَمَرَكُنَّ به، ونهيكنَّ بما نهاكُنَّ عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الأذىٰ، والشَّرَّ، والخبث، يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ حتَّىٰ تكونوا طاهرين مُطهَّرين.

أي: فاحمدوا ربَّكم، واشكروه علىٰ هذه الأوامر والنَّواهي، الَّتي أخبركم بمصلحتها، وأنَّها محض مصلحتكم، لم يُرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجًا ولا مشقَّةً؛ بل لتتزكَّىٰ نفوسُكم، ولتتطهَّر أخلاقُكم، وتحسن أعمالُكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولمَّا أمرهنَّ بالعمل الَّذي هو فعلٌ وتركٌ، أمرهنَّ بالعلم، وبيَّن لهنَّ طريقه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، والمُراد بآيات الله، القرآن، والحكمة أسراره، وسنَّة رسوله، وأمرُهنَّ بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبُّره والتَّفكُّر فيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه، وذكر العمل به وتأويله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصُّدور، وخبايا السَّماوات والأرض، والأعمال الَّتي تَبين وتُسَرُّ، فلطفه وخبرته يقتضي حثَّهنَّ علىٰ الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله علىٰ تلك الأعمال.

ومن معاني «اللَّطيف»: الَّذي يسوق عبده إلىٰ الخير، ويعصمه من الشَّرِّ، بطُرقٍ خفيَّةٍ لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرِّزق ما لا يدريه، ويُريه من الأسباب الَّتي تكرهها النُّفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلىٰ أعلىٰ الدَّرجات وأرفع المنازل.

[٣٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

لمَّا ذكر تعالىٰ ثواب زوجات الرَّسول ﷺ، وعقابهنَّ لو قُدِّر عدم الامتثال، وأنَّه ليس مثلهنَّ أحدٌ من النِّساء، ذكر بقيَّة النِّساء غيرهنَّ، ولمَّا كان حكمهنَّ

والرِّجال واحدًا جعل الحكم مشتركًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وهذا في الشَّرائع الظَّاهرة، إذا كانوا قائمين بها، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: المُطيعين لله ولرسوله ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في مَقالِهم وفِعالِهم ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الشَّدائد والمصائب ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصًا في عباداتهم، خصوصًا في صلواتهم، ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فرضًا ونفلًا ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ شمل ذلك الفرض والنَّفل، ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزِّنا ومُقدِّماته، ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المُقيَّدة؛ كالصَّباح والمساء، وأدبار الصَّلوات المكتوبات ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصِّفات الجميلة، والمناقب الجليلة، الَّتي هي ما بين اعتقاداتٍ، وأعمال قلوبٍ، وأعمال جوارِحَ، وأقوال لسانٍ، ونفعٍ مُتعدٍّ وقاصرٍ، وما بين أفعال الخير، وترك الشَّرِّ، الَّذي من قام بهنَّ فقد قام بالدِّين كلِّه، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بِالْمَغْفِرَةِ لذنوبهم؛ لأنَّ الحسنات يُذهِبن السَّيِّئات.

﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ لا يَقدُر قدرَه إلَّا الَّذي أعطاه، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

[٣٦] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: لا ينبغي ولا يليق ممَّن اتَّصف بالإيمان إلَّا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحتَّما به وألزما به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أنَّ الرَّسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه

وبيـن أمر الله ورسـوله.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: بَيِّنًا؛ لأنَّـه تـرك الصِّـراط المسـتقيم الموصلـة إلـىٰ كرامـة الله إلـىٰ غيرهـا مـن الطُّـرق الموصلـة للعـذاب الأليـم، فذكـر أوَّلًا السَّـبب المُوجِب لعـدم معارضته أمر الله ورسـوله وهو الإيمان، ثـمَّ ذكـر المانع مـن ذلك وهـو التَّخويـف بالضلَّال، الـدَّالِّ علـىٰ العقوبـة والنَّكال.

[٣٧] ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

وكان سـبب نزول هذه الآيات أنَ الله تعالىٰ أراد أن يشـرع شـرعًا عامًّا للمؤمنين، أنَّ الأدعيـاء ليسـوا في حكـم الأبناء حقيقةً مـن جميع الوجـوه، وأنَّ أزواجهـم لا جناح علـىٰ مـن تبنَّاهـم في نكاحهنَّ، وكان هذا من الأمـور المُعتادة، الَّتـي لا تكاد تزول إلَّا بحـادثٍ كبيـرٍ، فأراد أن يكون هذا الشَّـرع قولًا من رسـوله وفعـلًا، وإذا أراد الله أمرًا جعـل لـه سـببًا، وكان زيـد بن حارثـة يُدعىٰ «زيـدَ بـنَ مُحمَّدٍ»، قـد تبنَّـاه النَّبيُّ ﷺ، فصـار يُدعـىٰ إليه، حتَّىٰ نـزل ﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ﴾ فقيـل له: «زيد بـن حارثة».

وكانـت تحتـه زينـب بنت جحـشٍ، ابنة عمَّـة رسـول الله ﷺ، وكان قد وقـع في قلب الرَّسـول لـو طلَّقهـا زيـدٌ لتزوَّجهـا، فقـدَّر الله أن يكون بينهـا وبين زيدٍ مـا اقتضىٰ أن جـاء زيد بـن حارثة يسـتأذن النَّبـيَّ ﷺ في فراقها.

قـال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسـلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ﴾ بالعتق حيـن جاءك مُشـاورًا في فراقهـا، فقلت لـه ناصحًا له ومُخـبرًا بمصلحته مـع وقوعها في قلبـك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقهـا، واصبـر علـىٰ مـا جـاءك منهـا، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تعالـىٰ في أمـورك عامَّـةً، وفي أمـر زوجـك خاصَّـةً، فـإنَّ التَّقـوىٰ تحثُّ علـىٰ الصَّبر، وتأمـر به.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، والَّـذي أخفـاه أنَّه لو طلَّقها زيـدٌ لتزوَّجها ﷺ،

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها، ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وإنَّما فعلنا ذلك لفائدةٍ عظيمةٍ، وهي: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوَّجت زوج زيد بن حارثة، الَّذي كان من قبل ينتسب إليك.

ولمَّا كان قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لابدَّ من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات علىٰ هذه القصَّة، فوائد:

- منها: الثَّناء علىٰ زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:
  - أحدهما: أنَّ الله سمَّاه في القرآن، ولم يُسَمِّ من الصَّحابة باسمه غيره.
  - والثَّاني: أنَّ الله أخبر أنَّه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادةٌ من الله له أنَّه مسلمٌ مؤمنٌ، ظاهرًا وباطنًا، وإلَّا فلا وجه لتخصيصه بالنِّعمة، لولا أنَّ المُراد بها النِّعمة الخاصَّة.
- ومنها: أنَّ المُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.
- ومنها: جواز تزوُّج زوجة الدَّعِيِّ؛ كما صرَّح به.
- ومنها: أنَّ التَّعليم الفعليَّ أبلغ من القوليِّ، خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإنَّ ذلك نورٌ علىٰ نورٍ.
- ومنها: أنَّ المحبَّة الَّتي في قلب العبد لغير زوجته، ومملوكته، ومحارمه، إذا لم يقترن بها مَحذورٌ لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيَّته أن لو طلَّقها زوجها لتزوَّجها، من غير أن يسعىٰ في فُرقةٍ بينهما، أو يتسبَّب بأيِّ سببٍ كان؛ لأنَّ الله أخبر أنَّ الرَّسول ﷺ، أخفىٰ ذلك في نفسه.
- ومنها: أنَّ الرسول ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا ممَّا أوحِيَ إليه

إلَّا وبلَّغه، حتَّىٰ هذا الأمر الَّذي فيه عِتابُه، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه رسول الله، ولا يقول إلَّا ما أوحِيَ إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

○ ومنها: أنَّ المُستشار مُؤتمَنٌ، يجب عليه إذا استُشير في أمرٍ من الأمور أن يشير بما يعلمه أصلح للمُستَشير، ولو كان له حظُّ نفسٍ، فيُقدِّم مصلحة المُستَشير علىٰ هوىٰ نفسِه وغرضِه.

○ ومنها: أنَّ من الرَّأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يُؤمَر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفُرقة.

○ ومنها: أنَّه يتعيَّن أن يُقدِّم العبد خشية الله علىٰ خشية النَّاس، وأنَّها أحقُّ منها وأولىٰ.

○ ومنها: فضيلة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أمِّ المؤمنين، حيث تولَّىٰ الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبةٍ ولا شهودٍ، ولهذا كانت تفتخر بذلك علىٰ أزواج رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتقول: «**زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**».

○ ومنها: أنَّ المرأة إذا كانت ذات زوجٍ لا يجوز نكاحُها، ولا السَّعي فيه وفي أسبابه، حتَّىٰ يقضي زوجُها وطرَه منها، ولا يقضي وطره حتَّىٰ تنقضي عدَّتُها؛ لأنَّها قبل انقضاء عدَّتها هي في عصمته، أو في حقِّه الَّذي له وطرٌ إليها، ولو من بعض الوجوه.

[٣٨-٣٩] ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

هذا دفعٌ لطعن من طعن في الرَّسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنَّه طعنٌ بما لا مَطعن فيه، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثمٍ وذنبٍ ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قدَّر له من الزَّوجات، فإنَّ هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: لابدَّ من وقوعه.

ثمَّ ذكر من هم الَّذين من قبل قد خلوا، وهذه سنَّتهم وعادتهم، وأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ

﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله، وحُجَجه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فإذا كان هذا سنَّةً في الأنبياء المعصومين، الَّذين وظيفتهم قد أدَّوها وقاموا بها أتمَّ القيام، وهو: دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده الَّتي تقتضي فعل كلِّ مَأمورٍ، وترك كلِّ مَحظورٍ، دلَّ ذلك على أنَّه لا نقص فيه بوجهٍ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ مُحاسبًا عبادَه، مُراقبًا أعمالَهم، وعُلِم من هذا أنَّ النِّكاح من سنن المرسلين.

[٤٠] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لم يكن الرَّسول ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيُّها الأمَّة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عامًّا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره، أي: لا أبوَّة نسبٍ، ولا أبوَّة ادِّعاءٍ، وقد كان تقرَّر فيما تقدَّم أنَّ الرَّسول ﷺ أبٌ للمؤمنين كلِّهم، وأزواجه أمَّهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النَّوع بعموم النَّهي المذكور، فقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المُطاع، المَتبوع، المُهتدى به، المُؤمَن له، الَّذي يجب تقديم محبَّته على محبَّة كلِّ أحدٍ، النَّاصح الَّذي لهم، أي: للمؤمنين، من برِّه ونصحه كأنَّه أبٌ لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: قد أحاط علمُه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله، ومن لا يصلح.

[٤١-٤٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرًا كثيرًا، من تهليلٍ، وتحميدٍ، وتسبيحٍ، وتكبيرٍ، وغير ذلك من كلِّ قولٍ فيه قُربةٌ إلى الله، وأقلُّ ذلك أن يلازم الإنسان أوراد

الصَّباح، والمساء، وأدبار الصَّلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.
وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، علىٰ جميع الأحوال، فإنَّ ذلك عبادةٌ يسبق بها العامل وهو مُستريحٌ، وداعٍ إلىٰ محبَّة الله ومعرفته، وعونٌ علىٰ الخير، وكفُّ اللِّسان عن الكلام القبيح.
﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: أوَّل النَّهار وآخره؛ لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.
﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم، وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذُّنوب والجهل، إلىٰ نور الإيمان، والتَّوفيق، والعلم، والعمل، فهذه أعظم نعمةٍ أنعم بها علىٰ العباد الطَّائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الَّذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه -أفضل الملائكة- ومن حوله يُسبِّحون بحمد ربِّهم ويستغفرون للَّذين آمنوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾[غافر]، فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدُّنيا.
﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾، وأمَّا رحمته بهم في الآخرة فأجلُّ رحمةٍ، وأفضل ثوابٍ، وهو الفوز برضا ربِّهم، وتحيَّته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الَّذي لا يدري ولا يعرف كُنهَه إلَّا من أعطاهم إيَّاه، ولهذا قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.
[٤٥-٤٨] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

هـذه الأشـياء الَّتـي وصـف الله بهـا رسـوله محمَّدًا ﷺ هـي المقصـود من رسـالته، وزبدتهـا وأصولهـا الَّتـي اختـصَّ بها، وهي خمسـة أشـياءَ:

أحدُهـا: كونـه ﴿شَٰهِدًا﴾ أي: شـاهدًا علىٰ أمَّته بما عملـوه من خيرٍ وشـرٍّ، كما قال تعالـىٰ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾[البقـرة:١٤٣]، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾[النِّساء]، فهو ﷺ شـاهدٌ عـدلٌ مَقبولٌ.

الثَّـاني والثَّالـث: كونه ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾، وهذا يسـتلزم ذكر المُبشِّـر والمُنذر، وما يُبشِّـر بـه وينـذر، والأعمال الموجبـة لذلك.

فالمبشَّـر هـم المؤمنـون المُتَّقـون، الَّذيـن جمعـوا بيـن الإيمـان والعمـل الصَّالـح وتـرك المعاصـي، لهـم البشـرىٰ في الحيـاة الدُّنيـا بـكلِّ ثـوابٍ دُنيـويٍّ ودينـيٍّ رُتِّب علـىٰ الإيمـان والتَّقـوىٰ، وفي الأخـرىٰ بالنَّعيـم المُقيـم، وذلـك كلُّـه يسـتلزم ذكـر تفصيـل المَذكـور، مـن تفاصيـل الأعمـال، وخصـال التَّقـوىٰ، وأنـواع الثَّـواب.

والْمُنْـذَر هـم المُجرمـون الظَّالمـون، أهل الظُّلم والجهـل، لهم النَّـذارة في الدُّنيا من العقوبـات الدُّنيويَّـة والدِّينيَّـة المُترتِّبـة علىٰ الجهـل والظُّلم، وفي الأخـرىٰ بالعقاب الوبيـل، والعـذاب الطَّويـل، وهـذه الجملـة تفصيلهـا مـا جـاء بـه ﷺ مـن الكتـاب والسُّـنَّة المشـتمل علىٰ ذلك.

الرابـع: كونـه ﴿دَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أرسـله الله يدعـو الخلـق إلـىٰ ربِّهم، ويسـوقهم لكرامتـه، ويأمرهـم بعبادتـه الَّتي خُلِقوا لها، وذلك يسـتلزم اسـتقامته علـىٰ ما يدعو إليـه، وذكـر تفاصيل مـا يدعو إليـه، بتعريفهم لربِّهـم بصفاته المُقدَّسـة، وتنزيهه عمَّا لا يليـق بجلالـه، وذكر أنـواع العبوديَّة، والدَّعوة إلـىٰ الله بأقرب طريـقٍ موصلٍ إليه، وإعطـاء كلِّ ذي حـقٍّ حقَّـه، وإخلاص الدَّعوة إلـىٰ الله، لا إلىٰ نفسـه وتعظيمها، كما قـد يعـرض ذلـك لكثيـرٍ من النُّفـوس في هـذا المقام، وذلـك كلُّـه بِـإِذْنِ الله تعالىٰ له في الدَّعـوة وأمـره وإرادته وقدره.

الخامـس: كونـه ﴿سِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾، وذلك يقتضـي أنَّ الخلق في ظُلمـةٍ عظيمةٍ،

لا نـور يُهتـدىٰ بـه في ظلماتهـا، ولا علم يُستدلُّ بـه في جهالاتهـا، حتَّىٰ جـاء الله بهذا النَّبـيِّ الكريـم، فأضـاء الله بـه تلـك الظُّلمـات، وعلَّـم به مـن الجهـالات، وهدىٰ به ضُـلَّالًا إلـىٰ الصِّـراط المُستقيم، فأصبـح أهـل الاسـتقامة قد وضـح لهـم الطَّريق، فمشـوا خلـف هـذا الإمـام وعرفـوا بـه الخيـر والشَّـرَّ، وأهـل السَّـعادة مـن أهـل الشَّـقاوة، واسـتناروا بـه لمعرفـة مَعبودهـم، وعرفـوه بأوصافـه الحميـدة، وأفعالـه السَّـديدة، وأحكامه الرَّشـيدة.

وقولـه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾، ذكـر في هـذه الجملـة المُبشَّـر وهـم المؤمنـون، وعند ذكـر الإيمان بمُفـرده تدخل فيه الأعمـال الصَّالحة، وذكـر المُبشَّـر بـه وهو الفضـل الكبيـر، أي: العظيـم الجليل، الَّـذي لا يُقـادَرُ قدرُه، مـن النَّصـر في الدُّنيـا، وهداية القلـوب، وغفران الذُّنوب، وكشـف الكـروب، وكثرة الأرزاق الـدَّارَّة، وحصـول النِّعـم السَّـارَّة، والفـوز برضا ربِّهـم وثوابـه، والنَّجاة من سـخطه وعقابه.

وهـذا ممَّا يُنشِّـط العاملين، أن يُذكَـر لهم من ثواب الله علىٰ أعمالهم ما به يستعينون علـىٰ سـلوك الصِّـراط المسـتقيم، وهذا من جملـة حِكَم الشَّـرع، كما أنَّ مـن حِكَمه أن يُذكَـر في مقـام التَّرهيـب العقوبـاتُ المُترتِّبـة علـىٰ مـا يُرهَـب منـه، ليكـون عونًا علـىٰ الكفِّ عمَّا حـرَّم الله.

ولمَّـا كان ثَـمَّ طائفـةٌ مـن النَّـاس مُستعدَّةٌ للقيـام بصـدِّ الدَّاعيـن إلىٰ الله من الرُّسـل وأتباعهـم، وهـم: المنافقـون الذَين أظهـروا المُوافقـة في الإيمان وهم كفَـرةٌ فجَرةٌ في الباطـن، والكفَّـار ظاهـرًا وباطنًـا، نهـىٰ الله رسـوله عـن طاعتهـم، وحـذَّره ذلـك فقـال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: في كلِّ أمـرٍ يصُـدُّ عـن سـبيل الله، ولكن لا يقتضـي هـذا أذاهـم؛ بـل لا تطعهـم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، فإنَّ ذلـك جالبٌ لهـم، وداعٍ إلـىٰ قبـول الإسـلام، وإلىٰ كـفِّ كثيـرٍ مـن أذيَّتهم لـه ولأهله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إتمـام أمـرك، وخذلان عـدوِّك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ تُـوكَلُ إليـه الأمور المهمَّـة فيقوم بها، ويُسـهِّلها علـىٰ عبده.

[٤٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

يُخبر تعالىٰ المؤمنين أنَّهم إذا نكحوا المؤمنات ثمَّ طلَّقوهنَّ من قبل أن يمسُّوهنَّ فليس عليهنَّ في ذلك عدَّةٌ يعتدُّها أزواجهنَّ عليهنَّ، وأمرهم بتمتيعهنَّ بهذه الحالة بشيءٍ من متاع الدُّنيا الَّذي يكون فيه جبرٌ لخواطرهنَّ؛ لأجل فراقهنَّ، وأن يفارقوهنَّ فراقًا جميلًا من غير مُخاصمةٍ، ولا مُشاتمةٍ، ولا مُطالبةٍ، ولا غير ذلك.

ويُستدَلُّ بهذه الآية علىٰ أنَّ الطَّلاق لا يكون إلَّا بعد النِّكاح، فلو طلَّقها قبل أن ينكحها أو علَّق طلاقها علىٰ نكاحها لم يقع؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطَّلاق بعد النِّكاح، فدلَّ علىٰ أنَّه قبل ذلك لا محلَّ له.

وإذا كان الطَّلاق الَّذي هو فُرقةٌ تامَّةٌ وتحريمٌ تامٌّ لا يقع قبل النِّكاح، فالتَّحريم النَّاقص لظهارٍ أو إيلاءٍ ونحوه من باب أولىٰ وأحرىٰ أن لا يقع قبل النِّكاح؛ كما هو أصحُّ قَوْلي العلماء.

ويدلُّ علىٰ:

❍ جواز الطَّلاق، لأنَّ الله أخبر به عن المؤمنين علىٰ وجهٍ لم يلمهم عليه، ولم يُؤنِّبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

❍ وعلىٰ جوازه قبل المسيس؛ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة:٢٣٦].

❍ وعلىٰ أنَّ المُطلَّقة قبل الدُّخول لا عدَّة عليها؛ بل بمُجرَّد طلاقها يجوز لها التَّزوُّج حيث لا مانع، وعلىٰ أنَّ عليها العدَّة بعد الدُّخول.

وهل المُراد بالدُّخول والمسيس الوطء؛ كما هو مُجمعٌ عليه، أو وكذلك الخُلوة ولو لم يحصل معها وطءٌ؛ كما أفتىٰ بذلك الخلفاء الرَّاشدون، وهو الصَّحيح، فمن دخل عليها -وطئها أم لا- إذا خلا بها وجب عليها العدَّة.

❍ وعلىٰ أنَّ المُطلَّقة قبل المسيس تُمتَّع علىٰ الموسع قدره، وعلىٰ المُقتر

قدره، ولكنَّ هذا إذا لم يُفرَض لها مهرٌ، فإن كان لها مهرٌ مَفروضٌ فإنَّه إذا طلَّق قبل الدُّخول تَنَصَّف المهر، وكفىٰ عن المُتعة.

❍ وعلىٰ أنَّه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدُّخول أو بعده أن يكون الفراق جميلًا يَحمَد فيه كلٌّ منهما الآخر، ولا يكون غير جميلٍ، فإنَّ في ذلك من الشَّرِّ المُرتَّب عليه من قدح كلٍّ منهما بالآخر شيءٌ كثيرٌ.

❍ وعلىٰ أنَّ العدَّة حقٌّ للزَّوج، لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾، دلَّ مفهومه أنَّه لو طلَّقها بعد المسيس كان له عليها عدَّةٌ، وعلىٰ أنَّ المُفارَقة بالوفاة تعتدُّ مُطلقًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

❍ وعلىٰ أنَّ من عدا غير المَدخول بها من المُفارَقات من الزَّوجات بموتٍ أو حياةٍ عليهنَّ العدَّة.

[٥٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالىٰ مُمتنًّا علىٰ رسوله بإحلاله له ما أحلَّ ممَّا يشترك فيه هو والمؤمنون، وما ينفرد به، ويختصُّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطيتهنَّ مُهورهنَّ من الزَّوجات، وهذا من الأمور المُشتركة بينه وبين المؤمنين، فإنَّ المؤمنين كذلك يُباح لهم ما آتوهنَّ أجورهنَّ من الأزواج.

﴿وَ﴾ كذلك أحللنا لك ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: الإماء الَّتي ملكت ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفَّار من عبيدهم، والأحرار من لهنَّ زوجٌ منهم، ومن لا زوج لهنَّ، وهذا أيضًا مُشتركٌ.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ شمل العمَّ والعمَّة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا

حصر المُحلَّلات، يُؤخَذ من مفهومه أنَّ ما عداهنَّ من الأقارب غير مُحلَّل؛ كمَّا تقدَّم في سورة النِّساء، فإنَّه لا يُباح من الأقارب من النِّساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهنَّ من الفروع مُطلقًا، والأصول مُطلقًا، وفروع الأب والأمِّ وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه= فإنَّه لا يُباح.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قيدٌ لحِلِّ هؤلاء للرَّسول؛ كما هو الصَّواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأمَّا غيره -عليه الصَّلاة والسَّلام- فقد عُلِم أنَّ هذا قيدٌ لغير الصِّحَّة.

﴿وَ﴾ أحللنا لك ﴿ٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بمُجرَّد هِبَتِها نفسَها، ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرَّغبة ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ يعني: إباحة الموهبة، وأمَّا المؤمنون فلا يحلُّ لهم أن يتزوَّجوا امرأةً بمُجرَّد هِبَتِها نفسَها لهم.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي: قد علمنا ما علىٰ المؤمنين، وما يحلُّ لهم وما لا يحلُّ من الزَّوجات وملك اليمين، وقد علَّمناهم بذلك، وبيَّنَّا فرائضه.

فما في هذه الآية ممَّا يخالف ذلك فإنَّه خاصٌّ لك؛ لكون الله جعله خطابًا للرَّسول وحده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ إلىٰ آخر الآية، وقوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ وأبحنا لك يا أيُّها النَّبيُّ ما لم نُبِح لهم، ووسَّعنا لك ما لم نوسِّع علىٰ غيرك؛ ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالىٰ برسوله ﷺ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ أي: لم يزل مُتَّصفًا بالمغفرة والرَّحمة، ويُنزل علىٰ عباده من مغفرته، ورحمته، وجوده، وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

[٥١] ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي

﴿قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

وهذا أيضًا من توسعة الله علىٰ رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القَسْمِ بين زوجاته علىٰ وجه الوجوب، وأنَّه إن فعل ذلك فهو تبرُّعٌ منه، ومع ذلك فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهنَّ في كلِّ شيءٍ، ويقول: «**اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ**».

فقال هنا: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تُؤخِّر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها، ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ أي: تضمُّها وتبيت عندها.

﴿وَ﴾ مع ذلك لا يتعيَّن هذا الأمر ﴿مَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: أن تؤويها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ﴾، والمعنىٰ أنَّ الخيرة بيدك في ذلك كلِّه، وقال كثيرٌ من المُفسِّرين: إنَّ هذا خاصٌّ بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم.

ثمَّ بيَّن الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التَّوسعة عليك، وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهنَّ تبرُّعًا منك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ لعلمهنَّ أنَّك لم تترك واجبًا، ولم تُفرِّط في حقٍّ لازم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمُستحبَّة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التَّوسعة يا رسول الله، لتطمئنَّ قلوب زوجاتك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم وما أصرَّت عليه قلوبكم من الشَّرِّ.

[٥٢] ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

وهذا شكرٌ من الله الَّذي لم يزل شكورًا لزوجات رسوله رضي الله عنهنَّ، حيث

اخترن الله ورسوله، والدار الآخرة، أن رحمهنَّ، وقصر رسوله عليهنَّ، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: ولا تطلق بعضهنَّ فتأخذ بدلها، فحصل بهذا أمنُهنَّ من الضَّرائر، ومن الطَّلاق؛ لأنَّ الله قضىٰ أنَّهنَّ زوجاته في الدُّنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهنَّ فُرقةٌ. ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أي: حسنُ غيرهنَّ، فلا يحللن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ أي: السَّراري، فذلك جائزٌ لك؛ لأنَّ المملوكات في كراهة الزَّوجات لسن بمنزلة الزَّوجات في الإضرار للزَّوجات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ٥٢﴾ أي: مُراقبًا للأمور، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها علىٰ أكمل نظام، وأحسن إحكام.

[٥٣-٥٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾.

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالتَّأدُّب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذنٍ للدُّخول فيها لأجل الطَّعام، وأيضًا لا تكونوا ﴿نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: مُنتظرين ومُتأنِّين لانتظار نُضجه، أو سعة صدرٍ بعد الفراغ منه، والمعنىٰ: أنَّكم لا تدخلوا بيوت النَّبيِّ إلَّا بشرطين: الإذن لكم بالدُّخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي: قبل الطَّعام وبعده.

ثمَّ بيَّن حكمة النَّهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: انتظاركم الزَّائد علىٰ الحاجة ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: يتكلَّف منه، ويشُقُّ عليه حبسكم إيَّاه عن شؤون بيته،

واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أن يقول لكم: (اخرجوا) كما هو جاري العادة أنَّ النَّاس -وخصوصًا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يُخرِجوا النَّاس من مساكنهم، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿ٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

فالأمر الشَّرعيُّ ولو كان يُتوَهَّم أنَّ في تركه أدبًا وحياءً، فإنَّ الحزم كلَّ الحزم اتِّباع الأمر الشَّرعيِّ، وأن يجزم أنَّ ما خالفه ليس من الأدب في شيءٍ، والله تعالىٰ لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرِّفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدُّخول في بيوته، وأمَّا أدبهم معه في خطاب زوجاته فإنَّه إمَّا أن يحتاج إلىٰ ذلك أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه كأن يُسألنَ متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها فإنهنَّ يُسألنَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: يكون بينكم وبينهنَّ سترٌ يستر عن النَّظر لعدم الحاجة إليه، فصار النَّظر إليهنَّ ممنوعًا بكلِّ حالٍ، وكلامهنَّ فيه التَّفصيل الَّذي ذكره الله، ثمَّ ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ لأنَّه أبعد عن الرِّيبة، وكلَّما بعُدَ الإنسان عن الأسباب الدَّاعية إلىٰ الشَّرِّ فإنَّه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فلهذا؛ من الأمور الشَّرعيَّة الَّتي بيَّن الله كثيرًا من تفاصيلها أنَّ جميع وسائل الشَّرِّ وأسبابه ومُقدِّماته ممنوعةٌ، وأنَّه مشروعٌ البُعدُ عنها بكلِّ طريقٍ.

ثمَّ قال كلمةً جامعةً وقاعدةً عامَّةً: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائقٍ ولا مُستحسَنٍ منكم؛ بل هو أقبح شيءٍ ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: أذيَّةً قوليَّةً أو فعليَّةً بجميع ما يتعلَّق به، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنَّه ﷺ له مقامُ التَّعظيم والرِّفعة والإكرام، وتزوُّج زوجاته بعده مُخِلٌّ بهذا المقام، وأيضًا فإنهنَّ زوجاته في الدُّنيا والآخرة، والزَّوجيَّة باقيةٌ بعد موته، فلذلك لا يحلُّ نكاح زوجاته بعده لأحدٍ من أمَّته.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ وقد امتثلت هذه الأمَّة هذا الأمر، واجتنبت ما نهىٰ الله عنه منه، ولله الحمد والشُّكر.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ أي: تُظهروه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه فيجازيكم عليه.

[٥٥] ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

لمَّا ذكر أنهنَّ لا يُسألن متاعًا إلَّا من وراء حجابٍ، وكان اللَّفظ عامًّا لكلِّ أحدٍ، احتيج أن يُستثنىٰ منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنَّه ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنَّهنَّ إذا لم يحتجبن عمَّن هنَّ عمَّاته ولا خالاته من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهنَّ عليهم، فعدم احتجابهنَّ عن عمِّهنَّ وخالهنَّ من باب أولىٰ، ولأنَّ منطوق الآية الأخرىٰ المُصرِّحة بذكر العمِّ والخال،مُقدَّمةٌ علىٰ ما يُفهَم من هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: لا جناح عليهنَّ ألَّا يحتجبن عن نسائهنَّ، أي: اللَّاتي من جنسهنَّ في الدِّين، فيكون ذلك مُخرِجًا لنساء الكفَّار، ويحتمل أنَّ المُراد جنس النِّساء، فإنَّ المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مادام العبد في ملكها جميعه.

ولمَّا رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوىٰ الله، وأن لا يكون في مَحذورٍ شرعيٍّ، فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ يشهَد أعمالَ العباد، ظاهرَها وباطنَها، ويسمع أقوالهم، ويرىٰ حركاتهم، ثمَّ يجازيهم علىٰ ذلك أتمَّ الجزاء وأوفاه.

[٥٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

وهذا فيه تنبيهٌ علىٰ كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلُوِّ منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ عليه، أي: يُثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلىٰ؛ لمحبَّته تعالىٰ له، وتُثني عليه

الملائكة المُقرَّبون، ويدعون له، ويتضرَّعون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ اقتداءً بالله وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ، ومحبَّةً وإكرامًا، وزيادةً في حسناتكم، وتكفيرًا من سيِّئاتكم، وأفضل هيئات الصَّلاة عليه -عليه الصلَّاة والسلَّام- ما علَّم به أصحابه: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»، وهذا الأمر بالصَّلاة والسَّلام عليه مَشروعٌ في جميع الأوقات، وأوجبه كثيرٌ من العلماء في الصَّلاة.

[٥٧-٥٨] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾.

لمَّا أمر تعالىٰ بتعظيم رسوله ﷺ، والصَّلاة والسَّلام عليه، نهىٰ عن أذيَّته، وتوعَّد عليها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا يشمل كلَّ أذيَّةٍ قوليَّةٍ أو فعليَّةٍ، من سبٍّ وشتمٍ، أو تنقُّصٍ له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذىٰ، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لَعنِهم في الدُّنيا أنَّه يُحتِّم قتل من شتم الرَّسول وآذاه، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ جزاءً له على أذاه، أن يُؤذىٰ بالعذاب الأليم، فأذيَّة الرَّسول ليست كأذيَّة غيره؛ لأنَّه لا يُؤمن العبد بالله حتَّىٰ يؤمن برسوله ﷺ، وله من التَّعظيم الَّذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك، أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت أذيَّة المؤمنين عظيمةً، وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أي: بغير جنايةٍ منهم موجبةٍ للأذىٰ ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ﴾ على ظهورهم ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ حيث آذوهم بغير سببٍ ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾ حيث تعدَّوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

ولهذا كان سبُّ آحاد المؤمنين مُوجبًا للتعزير بحسب حالته وعلوِّ مرتبته، فتعزير من سبَّ الصَّحابة أبلغ، وتعزير من سبَّ العلماء وأهل الدِّين أعظم من غيرهم.

[٥٩-٦٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾.

هذه الآية الَّتي تُسمَّىٰ آية الحجاب، فأمر الله نبيَّه أن يأمر النِّساء عمومًا، ويبدأ بزوجاته وبناته؛ لأنَّهنَّ آكد من غيرهنَّ، ولأنَّ الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[التَّحريم:٦].

أن ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ وهنَّ اللَّاتي يكُنَّ فوق الثِّياب من ملحفةٍ وخمارٍ ورداءٍ ونحوه، أي: يُغطِّين بها وجوههنَّ وصدورهنَّ.

ثمَّ ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ دلَّ علىٰ وجود أذيَّةٍ إن لم يحتجبن، وذلك لأنَّهنَّ إذا لم يحتجبن ربَّما ظنَّ أنَّهنَّ غير عفيفاتٍ، فيتعرَّض لهنَّ من في قلبه مرضٌ فيؤذيهنَّ، وربَّما استُهين بهنَّ، وظُنَّ أنَّهنَّ إماءٌ، فتهاون بهنَّ من يريد الشَّرَّ، فالاحتجاب حاسمٌ لمطامع الطَّامعين فيهنَّ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ حيث غفر لكم ما سلف، ورحمكم بأن بيَّن لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سدٌّ للباب من جهتهنَّ.

وأمَّا من جهة أهل الشَّرِّ فقد توعَّدهم بقوله: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: مرض شكٍّ أو شهوةٍ ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: المُخوِّفون المُرهِبون، الأعداءُ، المُحدِّثون بكثرتهم وقوَّتهم وضعف المسلمين. ولم يذكر المعمول الَّذي ينتهون عنه، ليعُمَّ ذلك كلَّ ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشَّرِّ، من التَّعريض بسبِّ الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتَّعرُّض للمؤمنات بالسُّوء والفاحشة،

وغير ذلك من المعاصي الصَّادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلِّطك عليهم، ثمَّ إذا فعلنا ذلك لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوَّةٌ ولا امتناعٌ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلَّا قليلا بأن تقتلهم أو تنفيهم. وهذا فيه دليلٌ لنفي أهل الشَّرِّ، الَّذين يُتضرَّر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإنَّ ذلك أحسَمُ للشَّرِّ، وأبعَدُ منه، ويكونون ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلًا ٦١﴾ أي: مُبعدين أين وُجِدوا، لا يحصل لهم أمنٌ، ولا يقرُّ لهم قرارٌ، يخشون أن يُقتَلوا، أو يُحبَسوا، أو يُعاقَبوا.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ أنَّ من تمادىٰ في العصيان، وتجرَّأ علىٰ الأذىٰ، ولم ينته منه، فإنَّه يُعاقَب عقوبةً بليغةً، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ٦٢﴾ أي: تغييرًا؛ بل سنَّته تعالىٰ وعادته جاريةٌ مع الأسباب المُقتضية لأسبابها.

[٦٣-٦٨] ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾.

أي: يستخبرك النَّاس عن السَّاعة استعجالًا لها، وبعضهم تكذيبًا لوقوعها، وتعجيزًا للَّذي أخبر بها، ﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا يعلمها إلَّا الله، فليس لي ولا لغيرىٰ بها علمٌ، ومع هذا فلا تستبطؤوها، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾، ومُجرَّد مجيء السَّاعة قُربًا وبُعدًا ليس تحته نتيجةٌ ولا فائدةٌ، وإنَّما النَّتيجة: الخسار والرِّبح، والشَّقا والسَّعادة، هل يستحقُّ العبد العذاب، أو يستحقُّ الثَّواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مُستحقَّها.

فوصف مُستحقِّ العذاب، ووصف العذاب؛ لأنَّ الوصف المذكور مُنطبقٌ علىٰ هؤلاء المُكذِّبين بالسَّاعة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الَّذين صار الكفر

دأبهم وطريقتهم، الكفر بالل،ه وبرسله، وبما جاؤوا به من عند الله، فأبعدَهم في الدُّنيا والآخرة من رحمته، وكفىٰ بذلك عقابًا، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤﴾ أي: نارًا مُوقَدةً، تُسعَّر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلىٰ أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشَّديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفَتَّر عنهم ساعةً.

و﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ فيعطيهم ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾ يدفع عنهم العذاب؛ بل قد تخلَّىٰ عنهم الوليُّ النَّصير، وأحاط بهم عذاب السَّعير، وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، ولهذا قال: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فيذوقون حرَّها، ويشتدُّ عليهم أمرُها، ويتحسَّرون علىٰ ما أسلفوا، ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾ فسلِمنا من هذا العذاب، واستحققنا -كالمُطيعين- جزيلَ الثَّواب، ولكن أمنيَّةٌ فات وقتها، فلم تفدهم إلَّا حسرةً، وندمًا، وهمًّا، وغمًّا، وألمًا.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ وقلَّدناهم علىٰ ضلالهم، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان] الآية.

ولمَّا علموا أنَّهم هم وكبراؤهم مُستحقُّون للعقاب أرادوا أن يشتفوا ممَّن أضلُّوهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ فيقول الله: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾[الأعراف:٣٨]، فكلُّكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإنَّ تفاوُت عذاب بعضكم علىٰ بعضٍ بحسب تفاوت الجرم.

[٦٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾.

يُحذِّر تعالىٰ عباده المؤمنين عن أذيَّة رسولهم محمَّدٍ ﷺ، النَّبيِّ الكريم، الرَّءوف الرَّحيم، فيقابلوه بضدِّ ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبَّهوا بحال الَّذين آذوا موسىٰ بن عمران كليم الرَّحمن، فبرَّأه الله ممَّا قالوا من الأذيَّة، أي:

أظهر الله لهم براءته، والحال أنَّه عليه الصَّلاة والسلَّام- ليس محلَّ التُّهمة والأذيَّة، فإنَّه كان وجيهًا عند الله، مُقرَّبًا لديه، من خواصِّ المُرسَلين، ومن عباده المُخلَصين، فلم يزجرهم ما لَهُ من الفضائل عن أذيَّته والتَّعرُّض له بما يكره، فاحذروا أيُّها المؤمنون أن تتشبَّهوا بهم في ذلك، والأذيَّة المُشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسىٰ لمَّا رأوا شدَّة حيائه وتستُّره عنهم: «**إِنَّهُ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ**» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يُبرِّئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه علىٰ حجرٍ، ففرَّ الحجر بثوبه، فأهوىٰ موسىٰ عليه السلام في طلبه، فمرَّ به علىٰ مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

[٧٠-٧١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

يأمر تعالىٰ المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم، في السِّرِّ والعلانيَة، ويخصُّ منها ويندب للقول السَّديد، وهو القول المُوافق للصَّواب، أو المُقارب له عند تعذُّر اليقين، من قراءةٍ، وذكرٍ، وأمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن منكرٍ، وتعلُّم علمٍ وتعليمه، والحرص علىٰ إصابة الصَّواب في المسائل العلميَّة، وسلوك كلِّ طريقٍ يوصل لذلك، وكلِّ وسيلةٍ تعين عليه.

ومن القول السَّديد ليِّنُ الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المُتضمِّن للنُّصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثمَّ ذكر ما يترتَّب علىٰ تقواه وقول القول السَّديد، فقال: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها؛ لأنَّ استعمال التَّقوىٰ تُتقبَّل به الأعمال كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾[المائدة]، ويُوفَّق فيه الإنسان للعمل الصَّالح، ويصلح الله الأعمال أيضًا بحفظها عمَّا يُفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أنَّ الإخلال بالتَّقوىٰ والقول السَّديد سببٌ لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ الَّتي هي السَّبب في هلاككم، فالتَّقوىٰ تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كلُّ مَحذورٌ، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

[٧٢-٧٣] ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

يُعظِّم تعالىٰ شأن الأمانة الَّتي ائتمن الله عليها المُكلَّفين، الَّتي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم، في حال السِّرِّ والخُفية كحال العلانية، وأنَّه تعالىٰ عرضها علىٰ المخلوقات العظيمة -السَّماوات والأرض والجبال- عرض تخييرٍ لا تحتيم، وأنَّكِ إن قُمتِ بها وأدَّيتِهَا علىٰ وجهها فلكِ الثَّواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤدِّيها فعليكِ العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربِّهنَّ، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله علىٰ الإنسان، علىٰ ذلك الشَّرط المذكور فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثَّقيل، فانقسم النَّاس بحسب قيامهم بها وعدمه إلىٰ ثلاثة أقسام:

- مُنافقون أظهروا أنَّهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا.
- ومشركون تركوها ظاهرًا وباطنًا.
- ومؤمنون قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

فذكر الله تعالىٰ أعمال هؤلاء الأقسام الثَّلاثة، وما لهم من الثَّواب والعقاب فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾، فله الحمد تعالىٰ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدَّالَّين علىٰ تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أنَّ المحكوم عليهم كثيرٌ منهم لم يستحقَّ المغفرة

والرَّحمـة؛ لنفاقِه وشـركِه.

تمَّ تفسير سورة الأحزاب

بحمد الله وعونه.

مِنْ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ:

الأوصافُ السَّبعةُ:

قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾[الأحزاب]، تضمَّنت هذه الآيةُ سبعة أوصافٍ مهمَّةٍ للنَّبيِّ ﷺ:

[١] النُّبوَّةُ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: وصفه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بها تشريفًا له، وَالنَّبِيُّ مَنْ أُرْسِلَ إِلَىٰ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ بِشَرِيعَةِ رَسُولٍ قَبْلَهُ، يُعَلِّمُهُمْ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ.

[٢] الرِّسالةُ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: جَمَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ له بين وصفَي النُّبوَّة والرِّسالةِ، وكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رَسولًا، والرَّسُولُ هُوَ مَنْ أُرْسِلَ إِلَىٰ قَوْمٍ كُفَّارٍ مُكَذِّبِينَ.

[٣] الشَّهادةُ:

﴿شَٰهِدٗا﴾ أي:

(أ) **مُخْبِرًا:**
- عَن اللهِ بما أوحاهُ إليهِ.
- عَن عِبادِ اللهِ بالقَبولِ أو الرَّفضِ.

(ب) **حاكِمًا.**

(ج) **شاهِدًا** علىٰ من سبَقَه من الأُمَمِ في: تبليغِ رسالاتِ الرُّسُلِ، وفي تَكذيبِ قَومِهم لهُم.

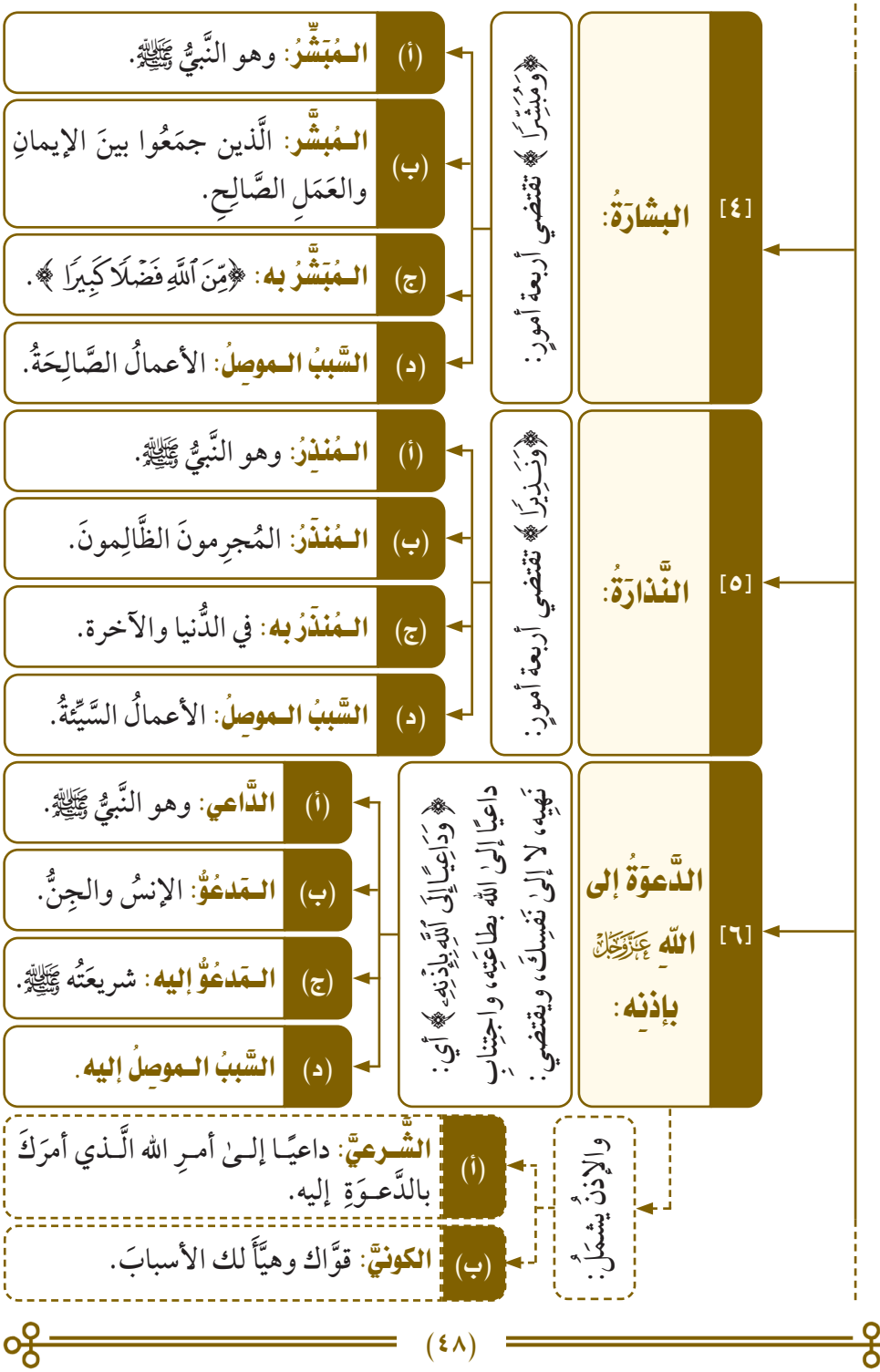
[٤] البشارَةُ:
﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تقتضي أربعة أمورٍ:
(أ) المُبَشِّرُ: وهو النَّبيُّ ﷺ.
(ب) المُبَشَّر: الَّذين جمَعُوا بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.
(ج) المُبَشَّرُ به: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾.
(د) السَّببُ الموصِلُ: الأعمالُ الصَّالِحَةُ.
[٥] النَّذارَةُ:
﴿وَنَذِيرًا﴾ تقتضي أربعة أمورٍ:
(أ) المُنذِرُ: وهو النَّبيُّ ﷺ.
(ب) المُنذَرُ: المُجرِمونَ الظَّالِمونَ.
(ج) المُنذَرُ به: في الدُّنيا والآخرة.
(د) السَّببُ الموصِلُ: الأعمالُ السَّيِّئَةُ.
[٦] الدَّعوَةُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بإذنِه:
﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي: داعيًا إلى الله بطاعَتِه، واجتنابِ نَهيِه، لا إلى نَفسِكَ، ويقتضي:
(أ) الدَّاعي: وهو النَّبيُّ ﷺ.
(ب) المَدعُوُّ: الإنسُ والجِنُّ.
(ج) المَدعُوُّ إليه: شريعَتُه ﷺ.
(د) السَّببُ الموصِلُ إليه.
والإذنُ يشمَلُ:
(أ) الشَّرعيَّ: داعيًا إلى أمرِ الله الَّذي أمرَكَ بالدَّعوَةِ إليه.
(ب) الكونيَّ: قوَّاك وهيَّأَ لك الأسبابَ.

[٧] **سِراجًا مُنيرًا:**

السِّراجُ ما يُستضاءُ به، فإن كانَ له إضاءَةٌ قويَّةٌ صارَ مُنيرًا لما حولَه، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَلَمٌ يُهتَدىٰ به في الظُّلُماتِ، تركَ أمَّتَه علىٰ محجَّةٍ بَيضاءَ، لَيلُها كَنهارِهَا سَواءٌ.

وهذا يقتضي أنَّ الخَلقَ كانُوا في ظُلمَةٍ عَظيمَةٍ، لا نورَ لهم يهتَدون به في ظُلُماتِها، ولا عِلمَ لهم يَستدِلُّون به في جَهالاتِها، حتَّىٰ جاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذا النَّبيِّ الكَريمِ، فأضاءَ اللهُ به تِلكَ الظُّلُماتِ، وعلَّمَ به من الجَهالاتِ، وهدىٰ به ضُلَّالًا إلىٰ الصِّراطِ المُستَقيمِ.

البِشارَةُ للمؤمِنينَ:

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الأحزاب]، والمُؤمِنونَ هنا يُرادُ بهم المُؤمنونَ والمُسلِمونَ جميعًا.
والمُبشَّرُ به يَكونُ في:

[١] **الدُّنيا:** بُشِّرَ المُؤمِنونَ بكلِّ ثوابٍ دُنيَويٍّ ودينِيٍّ، رُتِّبَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ علىٰ الإيمانِ والتَّقوىٰ.

[٢] **الآخِرَة:** بُشِّروا بالنَّعيمِ المُقيمِ، وأفضَلُه رُؤيَتُهم لرَبِّهم عَزَّوَجَلَّ دون حِجابٍ.

والفَضلُ الكَبيرُ هو العَظيمُ الجَليلُ، الَّذي لا يُقادَرُ قَدرُه، من: النَّصرِ في الدُّنيا، وهِدايَةِ القُلوبِ، وغُفرانِ الذُّنوبِ، وكَشفِ الكُروبِ، وكَثرَةِ الأرزاقِ الدَّارَّةِ، وحُصولِ النِّعَمِ السَّارَّةِ، والفَوزِ برِضا رَبِّهم، وثَوابِه، والنَّجاةِ من سَخطِه وعِقابِه.

التَّحذِيرُ مِنَ المُعانِدِينَ:

ظَهَـرَ في النَّـاسِ طائفتـانِ مُسـتعِدُّونَ لصَـدِّ الدَّاعيـن إلـىٰ اللهِ مـن الرُّسُـلِ وأتباعِهـم، وهـم:

(١) الكُفَّارُ ظاهِرًا وباطنًا.

(٢) المُنافِقـونَ الَّذيـن أظهَـروا المُوافَقَـةَ في الإيمـانِ، وهـم كفَـرَةٌ فجَـرَةٌ في الباطِـنِ.

فنَهـىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ رسـولَه عـن طاعَتِهـم، وحـذَّرَه ذلِكَ فقـالَ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾[الأحـزاب]، فأمـرَه بثلاثـةِ أمـورٍ:

[١] عدمُ طاعَتِهم: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾، أي: لا تتبَّعهـم في مـا يَدعونَـكَ إليـه؛ بـل أطِـعِ الله عَزَّوَجَلَّ وحـدَه.

[٢] تَـركُ أذاهُم: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي:

- (أ) لا تُؤذِهم.
- (ب) دع أذِيَّتَهم إيَّاكَ، فلا تلتَفِت لها ولا تهتَمَّ بها.

[٣] التَّوكُّل: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ في إتمامِ أمرِكَ، وخِذلانِ عَدُوِّكَ.

والتَّـوكُّلُ هـو: (صِـدقُ الاعتمـادِ علـىٰ اللهِ في جَلـبِ المَنافِـعِ، ودَفـعِ المَضارِّ، مـع الثِّقَةِ به، والأخذِ بالأسـبابِ المَشـروعَةِ).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾، أي: إذا أنـت توكَّلـتَ علـىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كفـاكَ كلَّ شـيءٍ، وحَفِظَـكَ، وصـارَ رَقيبًا عليـكَ، وليسَ أحـدٌ يَكفيـكَ غَيرُه عَزَّوَجَلَّ.

أسئلةٌ على سورَةِ الأحزابِ

[١] افتُتحت سورة الأحزاب بالأمر بالتَّقوىٰ، ويُوجَّه هذا الأمر إلىٰ النَّبيِّ ﷺ باعتباره أمرًا: ❍ خاصًّا به فقط. ❍ له ولأمَّته جميعًا. ❍ خاصًّا بالمؤمنين دون النَّبيِّ.

[٢] الأمر بالتَّقوىٰ يدلُّ علىٰ: ❍ زيادة الإيمان وتجديده. ❍ سقوط التَّكاليف بعد الوصول إلىٰ مرتبةٍ عاليةٍ. ❍ أنَّ التَّقوىٰ خاصَّةٌ بالمُذنبين فقط.

[٣] الأمر بالشَّيء قد يكون المقصود به: ❍ الاستمرار عليه. ❍ تجديده. ❍ التفصيل فيه. ❍ الجميع.

[٤] النِّداء في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يُفهم منه: ❍ شمول النِداء لكلِّ الأنبياء. ❍ نداءٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ. ❍ نداءٌ عامٌّ للصَّحابة أيضًا.

[٥] النَّبيُّ ﷺ ذُكر في القرآن دائمًا بصفاته (النَّبيُّ، الرَّسول) ولم يُنَادَ باسمه في سورة الأحزاب: ❍ صح. ❍ خطأ. ❍ ورد اسمه في السُّورة ضمن سياقٍ خاصٍّ.

[٦] يُنادىٰ النَّبيُّ ﷺ في القرآن: ❍ باسمه محمَّدٍ أو أحمدَ فقط. ❍ بوصفه نبيًّا ورسولًا وبالأوصاف الشَّريفة. ❍ بالاسم المُجرَّد دائمًا.

[٧] الخِطاب المُوجَّه للنَّبيِّ ﷺ في القرآن: ❍ يكون دائمًا له ولأمَّته. ❍ لا يشمل أمَّته أبدًا. ❍ يشمل أمَّته ما لم يَرِد دليلٌ يخصُّه به.

[٨] قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ: ❍ الكافر والمنافق قد يكونان ناصحين للمؤمن. ❍ لا يمكن أن يكون لهما نصحٌ صحيحٌ. ❍ المُنافق قد ينصح ولكن الكافر لا.

[٩] في باب الوعيد يُقدَّم: ❍ الكافر علىٰ المُنافق. ❍ المُنافق علىٰ الكافر. ❍ كلاهما في مرتبةٍ واحدةٍ.

[١٠] تُقرِّر الآيات الأولىٰ من السُّورة أنَّ الإنسان لا يملك إلَّا قلبًا واحدًا، والمقصود: ❍ استحالة اتِّباع منهجين متناقضين. ❍ أنَّ الإنسان ذو قلبين حسًّا. ❍ إمكانيَّة الجمع بين طريقين مُختلفين في آنٍ واحدٍ.

[١١] أُبطلت في أوائل السُّورة ثلاثة أمورٍ جاهليَّةٍ: ○ النِّفاق والتَّوارث بالهجرة والرِّبا. ○ الظِّهار والتَّبنِّي والقول بأنَّ للإنسان قلبين. ○ الطَّلاق الثلَّاث والرِّبا والقِسمة الجائرة.

[١٢] قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ يدلُّ علىٰ إبطال: ○ الرَّضاع. ○ التَّبنِّي. ○ التَّوارث بالهجرة.

[١٣] لماذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ولم يقل: (هو أبوهم)؟ ○ لأنَّ الأبُوَّة لها أحكامٌ شرعيَّةٌ لا تنطبق علىٰ الرَّسول ﷺ. ○ لأنَّه ليس له مقام الأبوَّة أصلًا. ○ لأنَّ الأمومة تكريمٌ للزَّوجات فقط.

[١٤] الذَّنب الوحيد الَّذي حرَّمه الله ولم يقترفه أحدٌ هو: ○ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾. ○ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾. ○ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾.

[١٥] حُرِّم علىٰ زيد بن حارثة أن يقول: (أنا زيد بن محمَّدٍ ﷺ) بعد نزول الآية، فعُوِّض بشرفٍ آخر وهو: ○ ذكر اسمه صراحةً في القرآن. ○ زيادة ميراثه. ○ تزويجه بابنة النَّبيِّ ﷺ.

[١٦] قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ النِّعمة: ○ نعمةٌ واحدةٌ مخصوصةٌ. ○ نعمٌ كثيرةٌ لا تُحصىٰ. ○ نعمةٌ أخلاقيَّةٌ فقط.

[١٧] قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ لا يُخصِّص النِّعمة بالحادثة؛ بل المقصود: ○ نعم اللَّه العامَّة. ○ نعمة المطر فقط. ○ نعمة الأمن فقط.

[١٨] نعمة الله تشمل: ○ دفع المكروه فقط. ○ جلب المحبوب فقط. ○ كلاهما.

[١٩] المنافقون قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، والصَّحيح: ○ بيوتهم كانت مكشوفةً فعلًا. ○ كانت حجَّةً كاذبةً للتَّخلُّف. ○ كانت حجَّةً صحيحةً ومُعتبرةً.

[٢٠] يُستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أنَّ تسمية المدينة بـ«يثرب»: ○ جائزةٌ بلا كراهةٍ. ○ من شأن المنافقين. ○ من المصطلحات الشَّرعيَّة الثَّابتة.

[٢١] كلُّ من دعا إلىٰ الرُّجوع عن الحقِّ ففيه شبهٌ من: ○ المؤمنين. ○ المنافقين. ○ الأنبياء.

[٢٢] غزوة الأحزاب كانت في السَّنة: ○ ٣ للهجرة. ○ ٤ للهجرة. ○ ٥ للهجرة.

[٢٣] تخيير أزواج النَّبيِّ ﷺ بين الدُّنيا والآخرة يُرشد المؤمنين إلىٰ: ○ تقديم الدُّنيا. ○ تقديم الآخرة وإيثار طاعة اللَّه ﷻ. ○ ترك الزَّواج.

[٢٤] الأمر بالتَّقوىٰ لأمَّهات المؤمنين بعد أمر النَّبيِّ ﷺ يدلُّ علىٰ: ○ أنَّهنَّ غير مُتَّصفاتٍ بالتَّقوىٰ. ○ أنَّ الأمر عامٌّ للمُؤمنين. ○ زيادة التَّثبيت والتَّشريف لهنَّ.

[٢٥] الحكمة من تزويج زينب بنت جحشٍ للنَّبيِّ ﷺ بعد طلاقها من زيدٍ رضي الله عنه هي: ○ إبطال آثار التَّبنِّي عمليًّا. ○ تشريفُها رضي الله عنها. ○ الجميع.

[٢٦] من تكاليف النَّبيِّ ﷺ الواردة في السُّورة: ○ تقوىٰ اللَّه. ○ عدم طاعة الكافرين والمنافقين. ○ اتِّباع الوحي والتَّوكُّل علىٰ اللَّه. ○ الجميع.

[٢٧] ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾: ○ فعلٌ ناقصٌ مُرتبطٌ بالزَّمان. ○ مَسلوب الزَّمان بالنِّسبة للَّه ﷻ. ○ يدلُّ علىٰ أنَّ اللَّه ﷻ كان عليمًا ثمَّ زال علمه.

[٢٨] علم الله يتعلَّق بالأشياء: ○ قبل وجودها فقط. ○ حين وجودها فقط. ○ في أحوالها الثَّلاثة: قبل الوجود، وعنده، وبعده.

[٢٩] ﴿حَكِيمًا﴾ مُشتقٌّ من: ○ الحكمة. ○ الحكم. ○ كلاهما.

[٣٠] من خصائص النَّبيِّ ﷺ في النِّكاح المذكورة في السُّورة: ○ جواز الزَّواج بلا مهرٍ. ○ التَّوسعة في عدد الزَّوجات له خاصَّةً. ○ عدم جواز زواجه بأجنبيَّةٍ.

[٣١] علاقة المسلمين ببيوت النَّبيِّ ﷺ تقوم علىٰ: ○ الدُّخول بلا إذنٍ. ○ الالتزام بالآداب الشَّرعيَّة. ○ الوصول إلىٰ الزَّوجات مباشرةً.

[٣٢] الأمر بالصَّلاة والسَّلام علىٰ النَّبيِّ ﷺ يدلُّ علىٰ: ○ وجوب تعظيمه. ○ استحباب الدُّعاء له فقط. ○ أنَّ الملائكة فقط يُصلُّون عليه.

[٣٣] إيذاء المؤمنين والمؤمنات من غير جرمٍ: ○ لا إثم فيه. ○ كبيرةٌ من الكبائر. ○ مَكروهٌ فقط.

[٣٤] شُرع الحجاب: ○ لإيذاء المنافقين. ○ لصيانة المؤمنات. ○ لأنَّه عادةٌ جاهليَّةٌ.

[٣٥] تحمُّـل الأمانـة يـدلُّ علـىٰ أنَّ الإنسـان: ❍ خُلـق ضعيفًـا. ❍ يقبـل المَسـؤوليَّة بعقـلٍ وإرادةٍ. ❍ مُجبـرٌ علـىٰ قبـول الأمانـة. ❍ الجميـع.

رَوابِطُ قَنَواتِ مَعْهَدِ السُّنَّةِ:

مَوقِعُ مَعهَدُ السُّنَّةِ:

رابِطُ الفيس بوك:

رابِطُ التِّلجرام:

رابِطُ الانستغرام:

رابِطُ التويتر (X):

رابِطُ الواتساب:

قَناةُ اليوتوب:

رابِطُ تَحميلِ الكُتُبِ: